لست بحاجة إلى من يصف بطولتي في مسألة الانتصار على الألم

(حسن مطلك)

حسن مطلك... صوت طاهر انتصر للإبداع.. شهيد الشرقاط

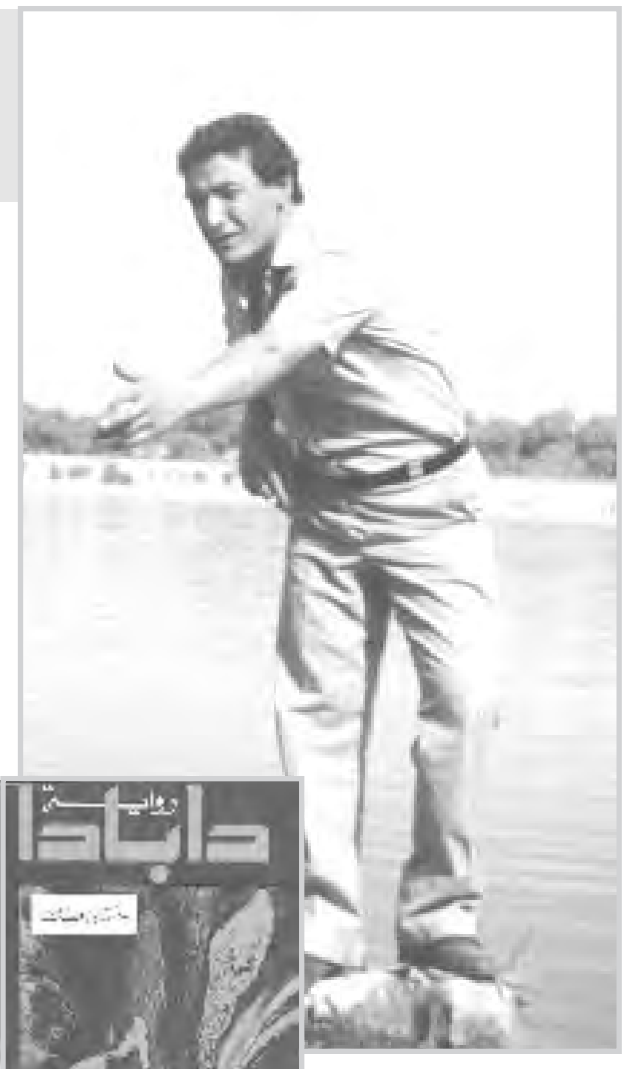

لـــاذا حســـن مطـــلك؟

لأنه روائي ومبدع عاش الكتابة باشتراطات الحياة. آمن أن مواجهة الدكتاتور والعمل على إزاحته جزء من عمل المبدع.

لقد عاش حسن مطلك أيام الطاغية، وفي ذروة جبروته تحداه في الكتابة والحياة.

ما يدعونا لاستذكار هذا الروائي الشهيد هو إنه لم يعبر معنا إلى ضفة الخلاص من الطاغية. لم يشهد معنا نهايته على الرغم من أنه غامر برأسه لفعل ذلك. وآمن بزواله. وضرورة زواله. مثلما غامر في فنه الروائي ليخرج برواية تركت صدى كبيراً لم يزل إلى الآن.

لقد عاش صاحب "دابادا" بخبرته ككاتب وإنسان. واستطاع أن يخرج على المجموع في كتابته وسلوكه وإيمانه بذاته. استعاد بقوة ذلك الدور المؤثر للمبدع، بمهارة وفن جديدين مغايرين، ولقد شاءت الظروف أن يعدم حسن مطلك ويغيب جسده على يد نظام الطاغية، لكنه بقي محرضاً كبيراً لجيل من الأدباء عاش وتربى على عوالم ولغة "دابادا". وحافظ على حضوره الملح في الأدب العراقي المعاصر، وقدم هزة عنيفة للضمير المبدع، للشرف، وللعقل المثقف.

وعاشت رواية "دابادا" مع جيل جديد من الأدباء عاد من الحرب وهو يحتفظ بوعيه وذكائه، مؤسساً لعلاقة جديدة بين الكاتب ولغته وسلوكه، بين المبدع ووضوح غايته. حتى غدت "هاجر" أو "عواد" وهما من أبطال رواية "دابادا" يطرقان بعنف ذاكرة الأدباء، ويدفعان بالروائيين لمواجهة أنفسهم وفنهم. يصرخان لسنوات طويلة في وجه الدكتاتور.

إن استذكارنا لهذا الروائي هذه الأيام ربما سيدلنا على حقيقة التزام المبدع والمثقف بقضاياه. ربما يقدم لنا حلاً ما لأيام المحنة والأزمة حينما تطبق. أو يثير فينا الأسئلة الحقيقية، أسئلة تتعلق بمواجهة مصاعبنا ومصائرنا. أو يدلنا على كيفية إعادة إنتاج إبداعنا. أو يقول لنا: إن الإبداع مرتبط بالشرف، وبالضمير، والموقف.

إن دم حسن مطلك لم يذهب هدراً. وإنما يحيا في عروق أدبنا وثقافتنا وحياتنا، ليلهمنا أو يدلنا على الطريق.

قاسم محمد عباس

قالوا في دابادا

(دابادا.. رواية غير عادية. فهي جديدة وكاتبها جريء)

جبرا إبراهيم جبرا

(إن دابادا هي الكتابة بشروط الحياة)

حمودجنداري

(رواية دبادا تستفز القارئ، وهي تتصدى لقضايا كبرى. وستثير إشكالات في مستوى القراءة، ومستوى التأويل وستختلف الآراء حولها).

عبد الله إبراهيم

سيـــرة روائي

حسن مطلك روائي عراقي ولد في قرية سديرة في الشرقاط شمالي العراق عام ١٩٦١، تخرج من جامعة الموصل عام ١٩٨٣ وهو قاص وتشكيلي أيضاً، طارت شهرته على إثر إصدار روايته "دابادا"، كتب العديد من القصص والمقالات. وأقام معرضه (التشكيلي الشخصي الأول عام ١٩٨٣، واشترك بثلاثين لوحة مع قصيدة طويلة للناقد سعيد الغانمي. أصدر مع مجموعة من أصدقائه مجلة "المربي" ونشر فيها مقالتين: الأولى عن الفن التشكيلي، والثانية قراءة لرواية الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال له أكثر من عشرين قصة نشر بعضها في الصحف والمجلات.

أما روايته "دابادا" فقد صدرت عن الدار العربية للموسوعات في بيروت عام ١٩٨٨ لتثير ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية، إلى الحد الذي وصفها البعض بأنها واحدة من أهم الروايات التي ظهرت نهاية القرن العشرين.

له الكثير من الأعمال لم تزل مخطوطة منها: "العين إلى الداخل - ومضات حرة" يوميات. "الكتابة وقوفاً" دراسات في الرواية تكشف عن رؤيته الخاصة للرواية.

"كتاب الحب - ظل القمر على الأرض" كتاب في العشق.

قوة الضحك في أورا

(قوة الضحك في أورا) للكاتب العراقي الراحل حسن مطلك الذي أعدمته الدكتاتورية البائدة سنة ١٩٩٠ لاشتراكه في محاولة لقلب نظام الحكم.

هذه هي الرواية الثانية للكاتب حسن مطلك، وهي لا تقل أهمية عن روايته الأولى الشهيرة (دابادا) التي شكلت حدثاً بارزاً ومهماً في الأدب العراقي المعاصر منذ صدورها سنة ١٩٨٨ لما تميزت به من فرادة وتحديث في مستويات السرد واللغة والتقنية والموضوع.

وتأتي رواية (قوة الضحك في أورا)، التي جمعها شقيقه د.محسن مطلك الرملي، من بين الأوراق التي تركها الراحل، متبعاً إشارات ومخططات كان المؤلف يضعها أثناء إعاداته المتكررة لكتابتها. إن هذه الرواية تؤكد، مرة أخرى، على عمق وقيمة مشروع حسن مطلك وأهميته كروائي متميز، فمن بين الكثير مما تزخر به نجد رؤية مختلفة عن السائد في تناول علاقة الشرق والغرب، حيث يطرح حسن مطلك هذه العلاقة على أرضية البعدين الإنساني والحضاري، موحداً بين الأزمنة، متخذاً من أرض عاصمة الآشوريين مكاناً لحركة شخوصه، وقد كتبها مدفوعاً بعذابه لما يحدث لها، قائلاً: "هناك ذكرى بعيدة، منذ أن كنت طالباً في الصف الثاني الابتدائي، شهدت رجلاً وجد صندوقاً مرمرياً جميلاً وباعه بأربعة دنانير إلى رجل إنكليزي.. آنذاك تعذبت.. وما زلت أتعذب".

وهذا المقطع مأخوذ من المدخل إلى الرواية، والمعنون بـ (توطئة) وهنا نصه:

"لو تعرفون، فقط، مقدار الشقاء الذي عانيته لكتابة هذه الرواية، كم من الألم، وإعادة الكتابة، ومحاولات تجميع الشخصيات الغريبة المتنافرة، والسهر الدائم لاصطياد فكرة أو جملة.

أورا: هو كل مكان لم أرَه، تاريخ مفتعل، بل رقعة ألم تأخذ شكل القبر، لأن المعادل الكلي لما قلت هو الموت المخيف، والرفس، ومحاولة الهرب إلى مكان بلا ذكريات.. وليس (أورا) إلا ذكريات جارحة كبرت فتحولت إلى كوابيس. لن أحاول هنا أن أكتب رواية، ولا أريد إرضاء أحد، وربما كانت فكرة إزعاجكم هي الأقرب فيما لو فكرت أحياناً أن أسمح لكم بالإطلاع على ما أكتب، دون أن آخذ بحسابي، طبعاً، أن أسمع مدحاً أو قدحاً، لأنني لست بحاجة إلى من يصف بطولتي في مسألة الانتصار على الألم.. فقد كان ذلك رغماً عني. صدقوني لقد اشتغلت بمشقة لكي أنسى أنني أمام تاريخ هائل معقد وذاكرة توشك أن تكون مريضة بالخيال، فوضعت حملاً بوزن الجبل على رأس المفترض (ديّام) الذي هو أنا، كيف أنكر؟ وآدم هو أنا، وأوليفر هو أنا... وكلهم، فريق من شخوصي لازموني ليلاً ونهاراً، أيقظوني من نومي لأكتب، ولكن لمَن؟.. لا أدري.

صرخة في الفراغ

تمارين حسن مطلك الشاقة لتعلم الخطأ

حميد المختار

(حين تنظر إلى الوراء فهناك دائما الماضي حتى عندما يكون قد اختفى
ولكن حين تنظر إلى الأمام
بعقد أصابعك القذرة والعصفور الذي بلا أجنحة على كتفيك.
ماذا تستطيع أن تكتب..)

(و.و. مورين)

-١-

كان يحلق ذقنه، حينما طرق الباب، ما زالت رغوة الصابون تغطي خديه الطريين، تأمل زهرة ندية قرب الباب، هواء الصباح المنعش يخلف شعوراً لذيذاً، أخذ يعب منه متنفساً بعمق كما لو إنه يدخره لأيام خانقه قادمة في هذه الأثناء كانت زوجته تعد الفطور، تساءل.. هل كان الصوت آتياً من الخارج أم إنه صوت آخر غريب..؟ كان للصوت هذه المرة وقع غريب على سمعه، طرق الباب ثانية، الطرقات هذه المرة جاءته أشد وأعنف، استغرب حسن ظاناً إن أحداً من الجيران ربما بحاجة ماسة إلى مساعدة، لم يكمل حلاقة ذقنه ولم يسعفه الوقت لمسح الرغوة، فتح الباب وإذا بزوار الفجر الشاحب يكشرون عن فوهات بنادقهم المرقطة. اختلط عنده كل شيء، ضحكات (شاهين) وأصوات د..ا.. با.. دا المتقطعة في البرية، قالوا لعائلته: سيعود سريعاً إنه استفسار فقط، العودة تأجلت والاستفسار تحول إلى تحقيق وصرخات فزعة والتحقيق صار كتيبة للإعدام، كان حسن وهو مقيد على عمود بارد أمام تلك الكتيبة السوداء يتذكر إنه لم يكمل المسودة الثانية لروايته (قوة الضحك في أورا) أغمض عينيه وحاول أن ينام قبل أن تنيمه الرصاصات عنوة. فجأة سمع أصوات الرصاص. كانت كثيفة وغير منقطعة، أحس للوهلة الأولى بدغدغات في أنحاء جسده ثم تبعه خدر عام أرخى معه جفنيه مغادراً أحلامه، لقد أحس تماماً كبطله (شاهين) بألم المسامير في أنحاء الجسد، المطرقة من طرف وصعوبة الاختراق من الطرف الآخر، قال في نفسه: لن يجدوا غير الهواء المثقب برائحة المطاط!!

عندئذ رأى كل شيء بعيون أخرى ووعي آخر وجسد لا ينتمي إلى أحد، رأى المدى الواسع الذي يحيط بالبساتين يمتد عميقاً إلى غاية مظلمة رأى عائلته وأطفاله يركضون صوب ضفة النهر الأخرى، تذكر كوخ الدجاج من الأعلى، الأحواض كصحون نظيفة والممرات المؤدية إلى غرفة الحارس، رأى الحذر الضيق في مساحات الأرض المفتوحة الرخوة الخالية والصانعة للسراب، ثم ها هو يتذكر أنه عندما خرج آخر مرة من البيت ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه، وهي عادة لديه، فهو كلما ترك الباب مفتوحاً فذلك يعني أنه سيعود سريعاً والعائلة تعلم بذلك جيداً، ناداه شخص من وراء السياج، ترى هل هو ينادي على (شاهين) أم عليه أم عليهما معاً، إنه الآن خارج (دابادا) بل هو في المسافة الضيقة بين دابادا واورا، قالوا: إن هاجر تبحث عنك، وهاجر التي تبحث وهي تصفع وتلعن وتعد الشاي - شاي الفطور الذي لم يتناوله بعد ذلك أبداً، لذلك قفز من سكونيته الملغومة ملتقطاً جسده، كان جسده خفيفاً هذه المرة على العكس مما كانت تقوله هاجر إنه ثقيل والبدانة - أخذت تستفحل فيه، لذلك قرر العودة ثانية والدخول من الأبواب المفتوحة..

-٢-

ذلك هو حسن مطلك الروائي العراقي الذي اخترق كل الحدود الفاصلة بين التجارب التقليدية والمحرمات والأشكال المعلبة في سيلوفان الوهم والثبات، حسن مطلك اخترق كل ذلك، إنه ضد القوانين التي تحيل المبدعين إلى براميل فارغة وصفحات بيض مكرورة، أراد حسن أن ينسج إسطورته لوحده وبلا تدخل من أحد، لم يلتزم برأي أو فكرة أو هدف سبق أن رسمه الآخرون، بل اختار المناطق المنسية من الذاكرة الغائرة في غموض آبار اللاوعي، لقد وضع خطاه هناك في تلك الأرض التي لم يطأها أحد بعد ثم بدأ يرسم أشكاله، عوالمه، رؤاه، شخصياته وقوانينه، لذلك فحري بنا أن نقول أنه هشم قدسيات الإرث الروائي وأراد تشكيله من جديد، بل وصل به الأمر إلى حد الحمى المدمرة التي طالت روحه وفكره الثاقب، وإذا به هذه المرة يتحدى الواقع الملتبس بقلمه وبالقبضة التي تمسك بالقلم، لذلك استطاع هذا المحارب أن يكتب ويحارب بيد واحدة، لقد وقف بين جبهتين اثنتين وفي يده ملاقط وخيوط يحرك بها مشاهد الواقع مرة ورؤاه مرة أخرى، كان كلما يسدد بالقلم يصيب أهدافه على الورق الأبيض بسهولة إلا البندقية فقد كانت عصية عليه، لذلك حين سدد فوهتها على جبهة الظلام غرق بطيلسان الليل ولم يخرج إلا جثة، لذلك أفلح حسن كشهيد وشاهد لعصر متفجر غاضب أفلح في تحديد هويته كشاهد مبدع مخترقاً حدود الممنوعات وقوانينها وأفلح كشهيد في تحقيق فكرة الصيرورة على الأرض وبناء يوتو بياه بالصراخ، إنه صراخ آخر في تحقيق مستمد من الحلم، صراخ أسس لعالم آخر متشكل في لا وعيه وهو موقن تماماً بقدومه إن آجلاً أم عاجلاً، لقد صنع من روحه بذرة وحجراً لبناء ذلك الطريق، الطريق الذي مر منه الدكتاتور منهزماً إلى حفرته الأخيرة، كان حسن يعلم إنها مسألة وقت لا أكثر ربما يطول أو يقصر، لكنه سيأتي، إذاً فهو مؤسس، يؤسس في الحلم ويؤسس في الواقع، لذلك نجح في تحقيق الأحلام ولو بعد حين وشارك في تحطيم وثن العراق بضراوة عبر سردياته التي صارت اشبه بنسيج شفيف يمر عبر ماكينة الخيال إلى انثيالات مطر يهطل من سماواته على كائناته وبراريه، تلك البراري التي شاركته فيها مخلوقاته المدهشة وعوالمه الآسرة وأصدقاؤه الموغلون في عمق الأرض ورائحة ترابها..

-٣-

كنت معه في سيارته نجوب شوارع بغداد وفي أحضاننا أكداس من رواية (دابادا) نوزعها على مكتبات شارع السعدون والرشيد والمتنبي، قال لي:

-بالنسبة لروايتك (ربيع الضواري) سنذهب معاً إلى الدار العربية للموسوعات لطبعها.. كان قد قرأها وأبدى إعجابه بها، قلت له:

-إنهم يعرفونك جيداً، فاتحهم بأمر طباعتها بلا تردد..

قال لي مؤكداً: إطمئن أنا سأتولى ذلك.. ثم اختفى حسن، كنت أنتظره ولكن بلا جدوى ولم يطل انتظاري فقد سمعت إنه أعتقل وأعدم مع مجموعة من الضباط بسبب اشتراكهم في محاولة للإطاحة بالنظام، كذلك زج بالمرحوم القاص الكبير محمود جنداري في سجن (أبو غريب) لأنه علم بالمؤامرة ولم يبلغ السلطات وربما اشترك معهم لا أحد يعرف، ثم أصبح اسمه محرماً على الجميع، بل وكان ملعوناً من قبل بعض الأبواق البعثية كنجمان ياسين الذي كان يشتمه أمامي وكنت أسكت على مضض، ذات يوم دخل شاب خجول مقهى حسن عجمي، كان يبحث عن وجه ما بين الوجوه الكئيبة المتوزعة على تخوت المقهى العجوز، إذا به يقترب مني قائلاً:

عفو أستاذ هل أنت جميد المختار؟

أجبته نعم.. مد يده لي وصافحني بحرارة وهو يقول هامساً: اسمي محسن وأنا أخ حسن مطلك جئت أبحث عن أصدقائه هنا في بغداد.. أمسكت بيده وعانقته ثم خرجنا من المقهى متجولين في شوارع بغداد الموحشة تتملكنا روح حسن الماكث فينا، كان الوقت ظهراً فدعوته إلى مائدة متواضعة في أحد مطاعم الميدان الشعبية ولم ينس هو ذلك تلك المائدة في رسالة بعثها لي وأنا في سجن (أبو غريب) وكان يعرب عن فرحته بكوني ما زلت حياً لأنه سمع إنني أعدمت من قبل النظام، لقد تحول حسن مطلك إلى علامة للحرية وواحة خضراء نستظل بها ونحلم معها في أيامنا القادمة، ها هو ذا أراه يركض وراء آلام الليل حين الانطلاقة الأولى للعصافير، وتستيقظ القرية ضاحكة ذات صباح غريب - صباح الرحيل والاحتفاء المبكر - تضمك البيوت والدروب والخبازات، كل شيء يضمك حتى الكلاب ونباتات الشوك والأعشاب الميتة والروث كلحية مراهق، ضحك ضحك وهكذا أهمل حسن مطلك رأسه ليكمل النشيد الناقص، إنه الضحك المبكر على لحية الليل الكثة وهو ضحك على سقوط الوثن، نعم لقد رأى كل شيء قبل الأوان، وقبل أوانه رحل...

والآن دعوني أختم مقالتي برثاء كان قد نشر في مجلة (غجر) في هولندا، الرثاء كان مخصصاً لي وبما إني ما زلت حياً لذلك سأهديه إلى صديقي حسن مطلك الذي عاش موته بجدارة محولاً إياه إلى حياة تستحق أن تعاش ثانية:

هل حقاً صارت الكتابة ترفاً ذهنياً؟

هل صارت حرفة شأنها شأن كل الحرف الأخرى؟

وأولئك الشهداء الذين صنعوا لنا تاريخ الموقف الحق والكلمة المقاومة أولئك الذين وحدوا حياتهم وكتاباتهم حتى الموت؟

هل صاروا حقاً تراثاً من الماضي؟

حسن مطلك (بدلاً من اسمي) أجاب على هذه الأسئلة

حسن مطلك أكد مرة أخرى لنا وللتاريخ ولنفسه أن الكاتب لا يستحق صفة الكاتب إلا حين يطابق تماماً بين موقفه في الحياة وموقفه في الكتابة مطابقة يخافها الحاكم ولا يجرؤ عليها المحكوم.

لكن حسن مطلك خرج من قيد المحكومية وكان عارفاً إنه خروج بلا عودة

سلام عليك يا حسن مطلك حياً وميتاً...

قصة

أســـــوَد

حســـن مطلك

(سلّم ينتهي في الفضاء). سمعته يُصرّ تحت سنابك الرجال. استطعت أن أعدهم: عشرة، من خلال الوطء والصرير، ثم أربعة، سبعة،،، وآخرين (ينزل أحدهم) تعلمتُ أسماءهم - لا من خلال ألم السلّم، بل من مناداة بعضهم لبعض علناً دون حياء .. في كل يوم أسمع أسماء جديدة (تعلمتُ ذلك من أخلاق النمل في النفق، إذ تذهب نملة تبشر بالحبة فتأتي الأخريات على خط الدبق - على إشارات الولد الضائع في الغابة وهو يُخرّق قميصه ويشدّه بالأغصان ويواجه البرْكة عارياً - حيث يهتدي النمل)...

(كان) أبي يسكن الغرفة العليا من البيت - ما الذي جعل الأقدام تذهب إلى الفضاء، إليه، هناك - لم أسمعه يُزوبع، ما الذي أسكته وأنزله من العرين؟.. (هو) الولوع باستجوابي أواخر الليل حين أعود مخموراً - كما يزعم - وأقف بأدب جم أمام مهابته، أمام رأسه الحليق المدفون في ظلمة أبدية حيث غلّق النوافذ بالجص وجلس منذ عشرة أعوام على كرسي واحد (لا يأكل، لا يشرب، لا ينام) كان يزوبع فقط فيهرّ أعمدة البيت. أسمعه فأمتنع عن التنفس، وأصعد السلّم على أطرافي الأربعة لأمثل أمام رأسه الحليق المدفون في الظلمة... وهكذا - لم أره منذ عشرة أعوام - باستثناء البياض الطبشوري على جبهته، والدمع المضيء في عينيه المظلمتين كعيني صنم سومري. وأوشك كل مرة أن ألمسه مهابة لأنه يدنيني من غموض بحاجة إليه. (بحاجة إلى جلسته الدائمة في الأفول، زوابعه، علوّه، سطوته، رائحته - مطر بعد قحط - مستواه فوق القلب، إشارات روحه في الهواء). أضع قهوته متلمساً زاوية الطاولة.. وأغيب. أنسحب في الرابعة صباحاً بعد التأنيب لأستبدل كوب الأمس الذي لم ينقص قطرة باستثناء ما تبخر في فضاء الغرفة (فضاء مظلم بلا سقف أصلاً). لقد أقلع عن عادة التدخين بالأنبوب واستبدلها بعادة الصريخ - الصوت المدخن - مغاراته - يا الله - مغارتاه تحت الجبهة الطبشورية تحدقان بي، بشفتيّ حتى درجة الشلل فلا أعرف كيف أجيب عن اتهاماته بغير هز الرأس - الذي تعلمت أنه موافقة أحياناً - أموت لساعة كاملة وأزحف نحو قدميه لألسهما فلا أجدهما - كما لا أجد قوائم الكرسي - وأقول أن جبهته الطبشورية مرتفعة عن الأرض عالياً جداً، وثقباه العميقان ينيران وجهي فأبتسم ليحبني (لعله) يحبني كولد حائر، وأقسمت له (لن أدخن سراً، لن أشرب). وقربني من ثقبيه، سمعته يشمّ فمي ثم يدفعني في الحائط حتى تبرق عيناي. يشتمني - يشتم نفسه: ابن الكلب - ولم أجرؤ على الادعاء بأن رائحة التبغ منه هو.

(كان يشير إلى البركة بجانب البيت ليطمئن على سلامة الدعاميص والأسماك الصغيرة السوداء ويشير إلى السور - سور هائل لا علاقة لنا به، طويل مرتفع بلا نهاية، قديم جداً، إذ اتخذته الحشرات الحمراء مسكناً وحفرت فيه ثقوباً دانية من السطح لأجل هواء الصيف الشمالي. أرضة سوداء. طحالب معدنية. أوكار لطيور مضطهَدة فارّة من مختبرات التجارب، مُعلّمة رقابها بعلامات نحاسية. وقد أوصاني أن أفتح نفقاً فيه وحدد لي، قبل عدد من السنين، مساحة الخرق المطلوب، بسخام الموقد - هناك، عندما تبلغ أشدك ستجد كل شيء، تعرف كل ما تريد.) قبل أن يلتجئ إلى غرفته المظلمة المرتفعة فوق سطح البيت. كان يأمرني كل يوم (أن أبدأ بالحفر) ويضربني لكي لا ألتجئ لأصدقاء السوء - أبناء الشوارع - وأهرب لثلاثة أيام أو أكثر،،، ولكنني أحنُ إلى عصاه وسطوته كحنيني إلى ظلال الأشجار المنسية على حافات النهر.

أعود إليه، إلى زوابع صوته، قامته الممتدة في الهواء الراكد، وأجلس عند قدميه - عندما يثير الريح بحركة كفه مشيراً إلى صورة القمر المهتز في البركة، غير أنني أنظر إلى فوق.. إلى القمر الطبيعي في أعماق السماء - كرحمة، كقصيدة، حب قاصم للظهر.

أعرف أن الصراخ بي من واجباته - واجبات الأب المقدس - إذ كان بإمكانه أن لا ينجبني. وقال يود أن يكرهني، أنا شخصياً، غير أن الأب نادراً ما يكره ابنه، كما قال، فلا أجد بداً من احترام هذه الأمنية لديه.. فكيف لا يُرعد ويرميهم إلى بركة القمر المهتز لتنقرهم الأسماك السوداء وقواقع ثقوب الأقدام؟.

إن هي إلا رفة وينبثق الضوء، طرقة أخرى وينتهي العمل. إنني أقترب من الهدف (سأجد كل شيء،، وأعرف ما أريد). طرقة أخرى، أخرى.. أخ.. لا بأس، فلابد من نهاية لهذا السور، رغم أن الضوء يبتعد، وأن الخرق الأول المؤشّر بالسخام قد أمسى مدخلاً للنفق.

رأت زوجتي أنني (أضيع الوقت) منذ أن نادتني من بعيد جداً، وسمعت صوتها قادماً من المدخل - من حافة الكرة الأرضية - لتعلمني - يومياً - بوقائع الحياة في عالم الأخوة البشر: كيف (أن الموضة الأخيرة للقمصان أصبحت بدون أكمام) فأضحك في حفرتي، أضحك ضدها، لأجلها.. تلك الطيبة!. وتقول (إنك تضيّع نفسك في قبر لا حد له). وتقول، دائماً، إنها ولدت طفلاً جديداً.. وسمّته باسم عصري وفق آخر المخترعات (أصبحوا الآن تسعة) تشير أسماؤهم إلى مراحل تطور المسدس،،، أما الصغير (ليزر) الذي أحبه ولا أعرف له وجهاً - إذ أقذف عبر ظلمة النفق بالهدايا الفخارية التي أجدها مركونة في رفوف الأجداد: مخابئ التراب الأصفر، بالأصل - بعض العظام المطحونة المشيرة إلى ركبة الجد، سلامياته، قفاه على شكل علبة،، وأوانيه المليئة بغلال متفحمة - هناك، قريباً من فوهة النفق حفرت لنفسي حفرة بمثابة بيت أتناول فيه الخبز وكأس النبيذ.. وأسألها عن الشمس فتندهش. أسألها عن الأخوة البشر فتغضب. كيف صار الأطفال تسعة؟. تسعة!. وما أخبار أبي؟.. فتذهب لأن الصغار يصرخون.. أعود إلى مغارتي وأواصل الدق.

كنت أسمع صوته المرعد يحثني على السرعة فأسرع، وينهاني عن صحبة رفاق السوء فأنتهي.

هناك، هناك أعمق من أي شيء. رائحة تاريخية تنبثق من ثقوب براكين خامدة وأنقاض زلازل. وبشرتني بطلوع نهار جديد وكيف أنها (وجدت القط الخاص بالأسرة مشنوقاً بشجيرة الخروع، إن نصفه الأسفل في الظل) - ما الظل؟ أي ظل؟ - (نصفه الأسفل كان محطماً وقد تيبست أطرافه في رياح القيلولات اليومية) - ما القيلولات اليومية؟ - (وأن أحداً قد علقه من رقبته بأغصان الشجيرة) - مَن الذي علقه؟.. أحدهم!. مَن هُم؟! - وزعمت أنها بدأت تراني أشبه فاكهة مخزونة.

حين تسلل لهب من فوهة النفق فأخافني وهربت إلى العمق،،، ولم أقو على الطرق لستة نداءات إلى الطعام.

قالت (إنه مات من الجوع - وهذا يعني أنه لم يعد يقفز - لم يشنقه أحد بالضبط بأغصان شجيرة الخروع، بل كان يرجو بموائه أن يلعق بقايا مسحوق الحليب (حليب الأولاد) - حليب مسحوق؟!..

(أمرني بالغطس في البركة - لأنني وسخ - فخفت من الدعاميص السوداء الصغيرة أن تدخل في ثقوبي. آه.. توقعت أن أنزلق بمخاط الطحالب - وبذلك فإن الطبيعة تهيئ له إمكانيات الطاعة - وبكيت لأجل شفقته. وقال لي بهدوء: ممنوع. ثم زوبع بـ: ممنووع. فبكيت، لكنه حرك أصابعه الخشبية على جدار بطني ليضحكني بالقوة) - هذا ما أذكره - إنه لأمر طريف: النفق الأوسع ضيقاً - أبصرتهم يهربون إلى طعن الساعة ويجزئون الدقائق بالحديث عن المنقول، وأنا أعرف أن للمنضدة أربعة قوائم.. سابقاً، ما من أحد يستغني عن سيقانه الخشبية تماماً - طرقة، طرقتان.. وأصل إلى الشيء، أحصل على كل شيء، أعرف كل شيء.. فلا أعترف بالهزيمة - . . أسمعهم، أقدامهم تصعد نحو علوّ أبي المقدس، وقد هدأ صوته منذ أن بدأت بالحفر فلأعترف: لا شيء في الخارج، لا شيء سوى هذا النفق.. هناك سأجدها واقفة -بانتظاري- خلف أطفالها.. في فضاء ممتد إلى ما لانهاية،، وهناك أبي الذي يُشرف على الجميع برحمته المزلزلة.. ورأسه الحليق المدفون في الظلمة، وعينيه الدائريتين كعيني صنم سومري.

لا أعترف بالذي تسميه زوجتي (الصيف) و(الشتاء) ولا بكل الأسماء الأخرى..

اقترب الهدف الآن لأن وقع الطرقات ينبئني بالوصول: صوت ضخم يدل على اهتزاز الهواء خلف شيء ما.. وهناك أجد الكنز. نادتني من باب النفق: (صاروا عشرة، وهم بحاجة إلى حنوّكَ، بحاجة إلى التعليم. الصغير يكتشف فائدة قدميه، لذلك فهو لا يكف عن البكاء ولا يدعني أغمض رغم أني تناولت علبة من الفاليوم - ما هو الفاليوم؟! - البيت بحاجة إلى مكنسة، والرجال بحاجة إلى رعاية لذلك فإن السلّم بحاجة إلى ترميم) - أي رجال؟! .. لمَ يصعدون السلّم ولا يردهم أبي؟ - وقرأت على ضوء نادر، في البداية البعيدة للنفق، أسماء الذين تزوجوا والذين ماتوا بداء النقرس، وأسماء المعزولين بسبب البرنويا - ما هي البرنويا؟! .. نادتني بصوتها البعيد المختنق القادم من مجاهيل (إنكَ مَدين لمصلحة المجاري، مدين للقصاب، مدين لشركة التأمين، مدين لبعض أصدقائكَ) - مَدين؟!! - (وقد وجهوا دعوة لحضور عيد ميلاد السيدة إيناس - يا للفرح! - إنها تطفئ الشمعة الخامسة فقط، أما بقية الشموع فقد تناولها الحضور مع الحلوى - على سبيل الدعابة طبعاً). وسمعتُ صوته مقاطعاً: (سوف تجد كل شيء.. كل شيء.. ل شيء). ظللت أدق أدق أدق،،، وسقط المعول في أرض هشة، في هواء أسود ملوث.. وانبثقت رائحة (ه). تلمست: هنا حافة الطاولة، هنا كوب القهوة لم ينقص منه شيء باستثناء ما تبخر في فضاء الغرفة.. وهنالك عيناه المظلمتان كعيني صنم سومري.. وهتفتُ بكل ما أملك من هواء مخزون ولهفة معتقة: أبي!! لقد وجدتـ (ك) أخيراً....

حزيران١٩٨٥